وقال آخر يشكو صعوبة التحقيق في العلم

برَّح بي ان علوم الورى شيئان ما ان فيهما من مزيد
حقيقة يعجز تحصيلها وباطل تحصيلهُ لا يفيد

دمشق الشام محمد كرد علي

احدى غوامض التاريخ

من يطالع تاريخ اوربا في القرن السابع عشر والثامن عشر ويطلّع على ما بزغ فيها من نور العلم والفضل ثم يراجع على ما كان يجري في قصور ملوكها وامرائها من المنكرات لا يعجب من قيام كرومول في انكلترا وحدوث الثورة في فرنسا بل يعجب من احتمال النفوس للقهر قرناً بعد آخر من غير ان تزهق . ثم اذا قاس الامم الغربيَّة بالامم الشرقيَّة لم يتوقع ان يرى في اوربا عشر ما يراهُ فيها الآن من الارتقاء فاننا نحن ابناء المشرق كانت حالنا منذ الف عام اصلح من حال اوربا منذ مئتي عام وقد كرَّت القرون ولم نرتقِ قيد شبر بل المرجح اننا زدنا انحطاطاً حتى ماثلت حال كثير من ممالكنا الآن حال اوربا في القرن السابع عشر . ولعلَّ كاتب تاريخ القرن التالي يكتب من سجون الاستانة عاصمة مملكتنا ما كتبهُ الفرنسويون من سجن باريس عاصمة مملكتهم وهاك طرفاً من ذلك

في الثامن عشر من شهر سبتمبر سنة ١٦٩٨ فتح باب الباستيل سجن باريس المشهور في التاريخ ليمرَّ عليهِ المحافظ الجديد سان مارس وكان راكباً مركبة ستائرها مدلاَّة وحولها ثلة من فرسان الحرس الملكي والى جانبهِ كهل تلوح عليهِ لوائح النبل ولكنَّ وجههُ كان مغطى ببرقع من المخمل الاسود مثبت حول رأسهِ بابازيم من الحديد . وكانا قادمين من سجن سان مرغريت في جنوب فرنسا الذي كان سان مارس محافظاً لهُ مدة سنين طويلة

وكان الملك لويس الرابع عشر يعدُّ سان مارس هذا مقدام السجانين في مملكتهِ فانهُ وقف نفسهُ على اتقان خدمتهِ منذ كان عمرهُ خمساً وثلاثين سنة فنال نعمة في عيني مولاهُ وصار من اخصِّ المقربين اليهِ . وقد ضاعف همتهُ الآن في المحافظة على السجين وبالغ في الاحتياط عليهِ فكان ينام بجانبهِ ويجلس معهُ على الطعام وبجانبهِ فردان . اما السجين فلم يكن ينبس ببنت شفة بل كان يجلس دائماً وظهرهُ الى جهة النور ولم يحاول مكالمة انسان ولا بالى باهتمام الحرس والناس بمشاهدتهِ في المحطات التي كان يقف ليبيت فيها

وبعد ما عبر السجان وسجينهُ الجسر الذي امام باب الباستيل رُفع الجسر ولم يعد السجين يرى عليهِ حيًّا . وسير بهِ الى غرفة في احد ابراج السجن حيث عاش خمس سنوات ولم يعرف الناس من امرهِ شيئًا ولم يرفع البرقع عن وجهه نهارًا ولا ليلاً . لان سان مارس كان قد امر بقتلهِ اذا حاول رفع البرقع عن وجههِ . وقلما كان يتكلم ولم يشك امرهُ البتة الى احد ولا قال لاحدٍ من هو

وكان يعامل بالتجلّة والاكرام ويُقدَّم اليهِ فاخر الطعام والشراب . ويُلبَس افخر الملابس ويلعب على الرباب ولم يألُ سان مارس جهدًا في مراقبتهِ كلَّ يوم وارسال التقارير الطويلة الى الملك عنهُ . فدلَّ ذلك على انهُ كان اعظم سجين في فرنسا كلها

وقد حاول مرة وهو في سجن سان مرغريت ان يبوح بخبرهِ . وبيان ذلك ان الطعام كان يقدَّم اليهِ في صحاف فضيَّة فتناول ذات يوم صحفة منها وكتب عليها شيئًا بسكين ثم القى بها من نافذة السجن على قارب صياد رسا بقاربهِ عند اسفل السجن فتناول الصياد الصحفة ولكنهُ كان اميًّا فظنَّ انها سقطت من البرج اتفاقًا فاخذها الى محافظ السجن وهو لا يدري شيئًا من امرها . فلما قرأ المحافظ ما كتب على الصحفة اخذتهُ الرعدة والتفت الى الصياد مذعورًا وسألهُ "هل قرأت ما كتب وهل رآهُ احد غيرك" فاجابهُ الصياد انهُ اميٌّ لا يستطيع القراءة ولا الكتابة وانهُ لم يرَ احد الصحفة غيرهُ . ولكن المحافظ لم يطلقهُ حتى وثق من صحة حكايتهِ فخلّى سبيلهُ قائلاً "ان جهلك القراءة وقاك من المهالك"

وبعد هذه الحادثة وُضع السجين تحت المراقبة الشديدة وهو على المائدة فكانوا يفحصون كلَّ صحفة يرفعونها من امامهِ ليكونوا على ثقة من انهُ لم يكتب عليها شيئًا وكانوا يفعلون مثل ذلك بملابسهِ التي كان يخلعها حتى انهم كانوا يفحصون الشموع التي توقد في غرفتهِ خشية ان يكون قد انتزع الفتيلة ووضع مكانها ورقة مكتوبة . وكان المحافظ ينتّشهُ كلَّ يوم . فتمَّ بذلك مراد الملك لويس وهو القضاء على ذلك السجين بالموت مجهول الاسم والنسب

هذا ولم يعرف احد كم كانت مدة سجنهِ ولكن البعض يقول ان امر المحافظة عليهِ وُكل الى سان مارس في سجن بنيارول اولاً ثم في سان مرغريت فالباستيل وتقدّر مدة سجنهِ بخمس وعشرين سنة على القليل وخمس واربعين على الكثير . ولا غرابة اذا لم يحاول الافلات من سجنهِ بعدان زُجَّ في اعماق الباستيل فان الملك كان شديد القسوة على سجنائهِ كثير الاكرام لسجانيهِ مغرمًا بقراءة التقارير المفعمة باخبار العذابات المبرحة التي كان المسجونون يسامونها وهم في السجون فتودي بهم الواحد اثر الآخر . وقد كان هذا نصيب كثيرين من رعاياهُ بعد

دخولهم ابواب السجون

وفي طليعة اولئك المنكودين فوكه اغنى اهالي فرنسا ووزير ماليته في اوائل ملكه فان غناهُ أثار الحسد والحقد في قلب الملك فطرحهُ في سجن بنيارول حيث بقي ست عشرة سنة يذوق غصص الموت ويسام من العذاب الالوان ثم مات ولم يعلم عنهُ شيء . ويقال انه مات ودفن سنة ١٦٨٤ ولكن بعض الذين يعوّل على رأيهم قالوا انهُ هو نفسهُ هذا السجين المبرقع

ومنهم افديك بطريرك الارمن في القسطنطينية فانهُ احتقر الجزويت وازدراهم وكان لويس ناصرًا لهم فسعى حتى تمكن من خطفهِ واحضارهِ الى فرنسا حيث زجهُ في اعماق السجون فمات بعد ان فقد بصرهُ وانقطع حبل رجائهِ من الخلاص ويذهب بعضهم الى انهُ السجين المبرقع نفسهُ

ومنهم الجنرال دي بولوند الذي اخفق في حصار مدينة كون وكان مطلعًا على بعض اسرار الملك فخشية ان يبوح بها سجنهُ فاختفى خبرهُ بعد ذلك وظن البعض انهُ السجين المبرقع

ومنهم ضابط اسمهُ مار يشيل كان رئيسًا لمؤامرة كبيرة دبرت ضد الملك فألقاهُ الملك في السجن ولم يسمع عنهُ شيء بعد ذلك . وقد رجح آخر باحث في هذا الموضوع ان هذا الرجل هو صاحب الوجه المبرقع

ومنهم الكونت متيولي مستشار الدوق منتوى وهو الذي باع لويس حصن كازال مفتاح بيدمونت باعهُ اياهُ سرًّا وكان لويس يطمع في الحصول عليهِ منذ زمن طويل ولكن متيولي اطلع اسبانيا والنمسا وسافوى على ذلك قبل تسليم الحصن الى الفرنسويين فخلصتهُ وصيرت لويس بذلك اضحوكة في اوربا كلها فاوفد من خطف متيولي واحضرهُ اليهِ فسجنهُ ولم يجسر احد ان يسأل عنهُ وهكذا انطفأ خبرهُ . وقد زعم كثيرون انهُ هو ذو الوجه المبرقع ولكن ذلك لم يثبت بالبرهان

على ان ذلك كلهُ لا يميط النقاب عن وجه الحقيقة ولا يزيح الستار عن صاحب الوجه المبرقع ولا ينبئ بسبب وضع البرقع على وجههِ لان كل انسان من معاصري لويس علم بسجنهِ للذين تقدَّم ذكرهم ولم يحاول احد تخليصهم فلا بدَّ ان يكون هناك باعث آخر حملهُ على فعل ما فعل . وعليهِ قام المذهب المشهور الذي هو اقرب الى الخيال منهُ الى الحقيقة وبنى فولتير ودوماس وغيرهما من مشاهير الكتاب كتاباتهم عليهِ ومآلهُ ان صاحب الوجه المبرقع هو اخو الملك لويس الرابع عشر من امهِ فقط او من ابيهِ وامهِ او ابن غير شرعي لهُ وعلى الراي الاول هو ابن الملكة حنة من دوق يكنهام او من الكردينال مازارين وعلى الثاني ان بعضهم تنبأ

للويس الثالث عشر بانهُ سيولد لهُ توأمان يتنازعان الملك بعدهُ ويفضي نزاعهما الى حرب اهلية في فرنسا. فلما ولد التوأمان ارسل اصغرهما الى فلاّح يربيهِ كأنهُ ابنهُ حتى اذا بلغ التاسعة عشرة من عمرهِ رأى صورة شقيقهِ الملك واطلع على كتاب من والدتهِ الى مربيهِ تلمح فيهِ الى سرّ مولدهِ فقطن الى دخيلة الامر وسرّح بعزمهِ على الذهاب الى البلاط الملكي للمطالبة بحقوقهِ فصدرت الاوامر من باريس حالاً بسجنهِ مدة الحياة فوضع البرقع المذكور على وجههِ وجُعل سان مارس سجّانًا لهُ. وقد وجد كتاب من ماري دي موريتا بين اوراق الكردينال ريشليه وزير لويس وفيهِ حكاية ذلك السرّ من اولها الى آخرها ولكن معظم المحققين المحدثين يعتقدون ان الكتاب المذكور موضوع لا حقيقة لهُ. وعلى القول الثالث انهُ دوق ڤرمندوى ابن الملك لويس الرابع عشر من المدام وازل ده لاڤاليه لطم اخاهُ ولي العهد مرةً فحكم ابوهُ عليهِ بالسجن مدى الحياة

ومهما يكن من سرّ المسألة فقد ثبت انهُ في ليلة من ليالي نوفمبر سنة ١٧٠٣ أُنزل جسر الباستيل ومرّت عليهِ جنازة ضئيلة سارت بالميت الخفيّ الى مدفن القديس بولس. وكان يسير خلف النعش رجلان من حفظة السجن حتى اذا بلغت الجنازة المدفن دفن الميت ثانية في التراب بعد ما دفن اولاً وراء الحجاب. ولم يعلم احد خارج السجن بموتهِ ما عدا الملك. وكأنهُ اراد ان يمحو ذكر وجودهِ من صفحات الاذهان فامر ان تحرق ثيابهُ وتذاب صحون الفضة التي كان يأكل منها وان تكشط جدران غرفتهِ وسقفها وارضها ثم ترمم ويمحى كل اثر باقٍ منهُ. وكتب عنهُ في سجل الموتى ان اسمهُ مرشيالي وعمرهُ ٤٥ سنة. وفي سجل المسجونين "مسجون من الداخلية"

وظن لويس ان القصة برمتها تمسي في زوايا النسيان قبلما تخل رفات ضحيتهِ في قبرها مع ما ضمها من الاكفان على ان السرّ باح بنفسهِ واثار حبّ استقصاء الحقائق من مكامنهِ. فما نسي الفلاحون السجين المبرقع ايام مرّ في مزارعهم يحرسهُ سان مارس ولا انقطع ذكرهُ عن السنة اهل البلاط همسًا في الآذان ان لم يكن نداءً عن السطوح. ولا عن السنة حرس الباستيل في مجالساتهم ومسامراتهم ومرّت السنون على ذلك حتى زجّ بعض رجال الادب في الباستيل فسمعوا عن تلك القصة ما اسال توائمهم واجرى مدامع اقلامهم فكتبوا ما ينيف عن خمسين كتابًا في هذا الموضوع. على ان تلك الكتب لم تهتك ستارًا ولا كشفت نقابًا بل كل ما كشفتهُ انما هو ظلم الملك لويس الرابع عشر وفسوتهُ. والمظنون ان السر المكنون مدفون في سجلات الفاتيكان برومية اذ يرجح ان السجين اخبر الكاهن الذي كان يعترفهُ بحقيقة امرهِ ومن المحتمل ان يكون الكاهن قد اخبر رؤساءهُ بذلك فاذا استطاع احد ان يطلع على تلك السجلات وجد فيها الخبر اليقين